آثار التوحيد في الحياة

إن التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتي أينع الثمرات ، وحقق أنفع الآثار في الحياة . ومن ثمرات التوحيد وآثاره :

(أ) **تحرير الإنسان** :

فالشرك بكل صوره ومظاهره ليس إلا امتهانًا للإنسان ، وإذلالاً له ، حيث يلزمه الخضوع للمخلوقات ، والعبودية لأشياء أو أناس لا يَخلقون شيئًا وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نُشورًا .

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية إلا لربه الذي خلقه فسوَّاه ، تحرير لعقله من الخرافات والأوهام ، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام ، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألهين على عباد الله .

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة ، ودعوة الرسول خاصة ؛ لأنهم كانوا يعلمون أن معنى « لا إله إلا الله » : إعلان عام لتحرير البشر ، وإسقاط لكل الجبابرة من عروش تألههم الكاذب ، وإعلاء لجباه المؤمنين فلا تطأطئ إلا ساجدة لله رب العالمين .

(ب) تكوين الشخصية المتزنة :

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة التي تميزت في الحياة وجهتها ، وتوحدت غايتها ، وتحدد طريقها ، فليس لها إلا إله واحد تتجه إليه في الخلوة والجلوة ، وتدعوه في السرَّاء والضرَّاء ، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة .

بخلاف المشرك الذي تقسمت قلبه الآلهة ، وتوزعت حياته المعبودات ، فحينًا يتجه إلى الله ، وأحيانًا إلى الأصنام ، وحينًا إلى هذا الصنم ، وحينًا إلى ذاك .

ومن هنا قال يوسف عليه السلام : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (يوسف:٣٩) . وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ

وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (الزمر:٢٩) . مثَّل المؤمن بعبد له سيد واحد عرف ما يُرضيه وما يُسخطه ، فوقف عند ما يُرضيه واستراح إليه ، ومثَّل المشرك بعبد له أكثر من سيد ، هذا يوجهه إلى الشرق ، وذاك إلى الغرب ، وهذا يأخذه إلى اليمين ، وآخر إلى اليسار ، فهم شركاء متشاكسون ، وهو بينهم مشتت موزع لا ثبات له ولا قرار .

(جـ) التوحيد مصدر لأمن النفس :

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمنًا وطمأنينة ، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك ، فقد سد منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم : الخوف على الرزق ، والخوف على الأجل ، والخوف على النفس ، والخوف على الأهل والأولاد ، والخوف من الإنس ، والخوف من الجن ، والخوف من الموت ، والخوف مما بعد الموت . .

أما المؤمن الموحد فلا يخاف شيئًا ولا أحدًا إلا الله ، ولهذا تراه آمنًا إذا خاف الناس ، مطمئنًا إذا قلق الناس ، هادئًا إذا اضطرب الناس ، وفي هذا يذكر القرآن حوار إبراهيم مع قومه المشركين حين خوَّفوه بأصنامهم وآلهتهم الزائفة ، فرد

عليهم متعجبًا ومعجِّبًا بقوله : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٨١) . ثم بيَّن سبحانه وتعالى من يستحق الأمن من الفريقين فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:٨٢) . وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة . . وهذا أمن الدنيا . وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى ؛ لأنهم أخلصوا لله ولم يخلطوا توحيدهم بشرك .

روى البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال : لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قلنا : يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال :« ليس كما تقولون . أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » (لقمان:١٣).

فمعنى ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ : أنهم أخلصوا دينهم لله ، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك .

(د) التوحيد مصدر لقوة النفس :

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة ؛ لما تمتلئ به نفسه من الرجاء في الله ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تزحزحه الحوادث ، ولا تزعزعه الكوارث .

كلما ألمت به نازلة ، أو حلَّت بساحته شدة ، رفض اللجوء إلى الخلق ، واتجه بقلبه إلى الخالق ، إياه يسأل ، ومنه يستمد ، وعليه يعتمد ، لا يرجو غيره في كشف الضر ، وجلب الخير ، ولا يمد يده إلى أحد إلا إلى الله ضارعًا داعيًا منيبًا إليه .

شعاره قول النبي ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(يونس:١٠٧).

ألا ترى إلى هود عليه السلام حين خوَّفه قومه بكيد الأصنام له قال : ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود: ٥٤-٥٦) منطق قوي ، يُعبِّر عن نفس واثقة ، وعزيمة صُلبة ، وإيمان لا يهن ولا يستكين ، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف ؛ لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٤٩).

(هـ) التوحيد أساس الإخاء والمساواة :

وإذا كان التوحيد يُعد أساسًا لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته ، فهو أساس أيضًا لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ؛ لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أربابًا لبعض . فأما إذا كانوا كلهم عباد الله ، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس ، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تُختم بهذه الآية الكريمة : ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وكان من أدعية النبي ﷺ عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم : « اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك . اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »[1].

وهذه الشهادات الثلاث المذكورة من النبي ﷺ يرتبط بعضها ببعض .

فإعلان الأخوة الإنسانية العامة ـ أن العباد كلهم إخوة ـ مبني على الشهادتين الأوليين : تفرد الله تعالى بالألوهية ، فلا شريك له ولا أرباب معه ، ولا يستحق الخضوع والعبادة غيره .

وعبودية محمد ﷺ لله ، وتبليغه عنه ، ينفي عنه كل شبهة أو رائحة للألوهية ، فليس إلهًا ، ولا ابن إلَه ، ولا ثلث إله ، كما زعم النصارى للمسيح .

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم .

وإذا تقررت هاتان الحقيقتان : ألوهية الله وحده ، وعبودية الناس جميعًا له ، وعلى رأسهم محمد رسوله ومصطفاه ﷺ - ترتب على ذلك تقرير الحقيقة الثالثة وهي : أن عباد الله إخوة متساوون ، فلا تمييز عنصري ، ولا تفرقة بين الألوان ، ولا تفاضل بالأنساب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

(الحجرات: ١٣).

* * *